حلاقـــــون تحـــــت موسى الإرهـــــاب!

عامر القيسي
تصوير: سمير هادي

توقفت ثلاث سيارات حديثة أمام محل (عصام للحلاقة) في منطقة الشعب الساعة التاسعة والربع ليلة ٢٣/ ٤/ ٢٠٠٥، ترجل من احدها مسلحان، احدهما يحمل مسدساً والثاني بندقية رشاشة. وبكل برودة اعصاب، تلك التي يتمتع بها عادة القتلة من المحترفين، تقدم أحدهما من الحلاق أنور حسين، الذي كان جالساً على كرسي الحلاقة وأطلق على رأسه رصاصة أردته قتيلاً في الحال. وحين شاهده أخوه عايد يتخبط بدمه على الأرض، حاول الهجوم عليهما، لكن الثاني عاجله برشقة من الرصاص من بندقية (الكلاشنكوف) وأرداه قتيلاً في الحال قرب جثة أخيه. ثم تركا المحل. وغادر الجميع المنطقة بسياراتهم إلى جهة مجهولة.

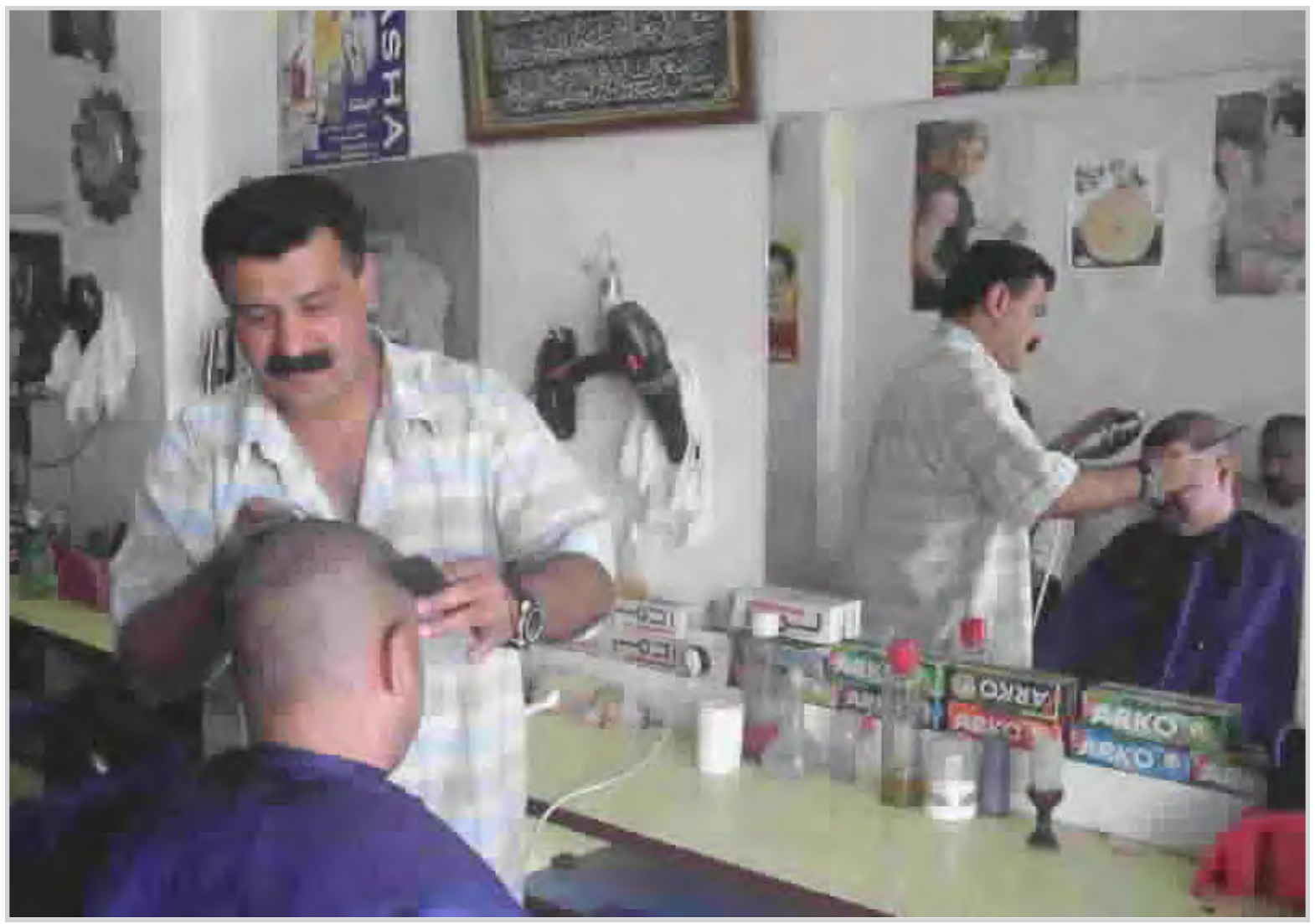

هذا هو ملخص رواية شهود عيان لإحدى جرائم الاغتيال الجماعي للحلاقين في منطقة الشعب (٩ حلاقين في ليلة ٢٣/ ٤/ ٢٠٠٥) واغتيل العاشر يوم ٢٨/ ٤ في منطقة حي البنوك. فما هي قصة اغتيال الحلاقين التي تتكرر بين وقت وآخر في مناطق مختلفة من بغداد؟ واي دين أو مذهب يبيح قتل الناس على مهنهم أو لأنهم يحلقون اللحى؟ وما رأي رجال الدين في ذلك؟ الشرطة ماذا عملت؟ وأين وصلت في تحقيقاتها بشأن هذه الجرائم البشعة؟ هذه الأسئلة وغيرها، خضناها مع أصحاب العلاقة من كل الأطراف.

شهيدان في عزاء

محطتنا الاولى كانت في دار السيد حسين الذي فقد ولديه (أنور وعايد) كان مجلس العزاء قد انقضت أيامه الثلاثة وقد بقينا أكثر من ساعة ندور في شوارع مدينة الشعب حتى عثرنا على محطتنا هذه، وأثناء البحث استرعى انتباهنا ان جميع محال الحلاقة الرجالية مغلقة واستخدمت المساحات الامامية لهذه المحال لعرض بضائع المحال المجاورة!! وكأن هجرة أصحاب هذه المحال ستكون هجرة طويلة الأمد.

استقبلنا والد الشهيدين وشقيقهما وبعض أقاربهما وانفتح الحوار بيننا من خصوصية الحالة إلى عمومية الوضع السياسي. وبرغم كل العواطف الفوارة للشقيق أحمد، الذي كان متأثراً إلى درجة الصدمة. إلا انه لم يكن منفلتاً، أما والده فقد كان أكثر استيعاباً للواقع. وبتنوع تداخلات من كان حاضراً من أولاد عمومة الشهيدين. يمكننا الاستنتاج رغم الكارثة التي حلت بهم: إن هؤلاء الناس يعون، ان مثل هذه الاعمال وان كان ثقلها يقع على طائفة محددة، فالهدف منها هو جر مكونات الشعب العراقي إلى فتنة.. لا ينجو منها احد ويحترق اخضرها بسعر يابسها، كما يقال وحتى من يسعى إليها ويروج لها سيحرقه شرارها.

يقول احمد: ان ما يؤسف له ان الشرطة غير مهتمة. اجراءاتها بسيطة ولم تعط مثل هذا الحادث الواضح المعالم والأهداف ما يتناسب وحجمه وتأثيره واحتمالات امتداده. في التاسعة والربع ليلاً سمعنا صوت اطلاقات نارية (المحل ليس بعيداً عن البيت) ولا أعرف أي هاجس سيطر علي من ان هذه الاطلاقات قد استهدفت الشهيدين (أنور وعايد) وفي صباح اليوم التالي عرفنا ان سبعة حلاقين آخرين استشهدوا على يد هذه العصابات التي تكفر من تشاء وتبيح قتل من تشاء من دون ان تجد من يردعها. العار لهم فمأواهم جهنم وبئس المصير، فيما سينعم (انور، وعايد) بجنات الخلد، وان شاء الله سيسير طفلاً أنور على خطى والدهما في الالتزام. الوالد المفجوع باستشهاد ولديه يقول، والاسى البالغ واضح على ملامح وجهه: الأمن هنا مفقود، ولا يأمن الإنسان على نفسه وهو يسير في الشارع. لقد استشهد أنور وهو من مواليد ١٩٧٩ وترك لنا زوجة أرملة ويتيمين بعمر الورد. من تعتقد هؤلاء الذين ارتبكوا هذه الجرائم؟ قال: انهم من السلفيين بالتعاون مع بقايا نظام صدام المقبور وهنا تدخل احد أقرباء الشهيدين قائلاً: حدث في منطقة غماس ان ذهب ١٩ شخصاً من صيادي الأسماك. وانا ابن المنطقة إلى منطقة بحيرة الثرثار لممارسة مهنتهم القديمة وطريقهم يمر بحديثة وهم ليسوا حتى من الحرس الوطني والشرطة، اعترضتهم مجموعة إرهابية مسلحة واخذوهم إلى ملعب المدينة، وتم اعدامهم هناك، فهل صيد السمك حرام أيضاً؟ هل هم من الحلاقين؟ ان الذي يحدث هو زيادة الضغط لكي يحصل الانفجار ونحترق جميعاً بنيران حرب أهلية، ولكننا نقول لهم: هذا لن يحدث، وأن أيام الإرهاب والإرهابيين معدودة ان شاء الله.

كانت فورتهم العاطفية وحنقهم على اعمال القتل هذه تسيطر على افكارهم، وترسم لهم المشهد على غير حقيقته. وانبرى لنا شاهد عيان آخر لجريمة أخرى هي اغتيال الحلاق سيد جاسم قال لنا من دون ان يرغب بذكر اسمه: "دخل احد هؤلاء القتلة على الحلاق سيد جاسم، ومحله على الشارع العام الرئيس لمدينة الشعب، وقال له اعطني رأسك، وأفرغ في رأس الحلاق عدة اطلاقات نارية وفر هارباً بالسيارة التي كانت تنتظره". في سياق حديثنا هذا مع هذه المجموعة، أردنا التحدث إلى الشخص الذي كان داخل محل عصام للحلاقة، والذي طلب منه القتلة مغادرة المحل قبل القيام بفعلهم الإجرامي، فأخبرونا ان الرجل مصدوم من هول الحادثة، وفي بعض الأحيان لا يستطيع الكلام. لقد كان احد اقرب الأصدقاء للشهيدين أنور وعايد.

إذا عرف السبب!

توجهنا إلى مركز شرطة الشعب، المسيج بأكوام من الكتل الكونكريتية، وقبل وصولنا إليه مشياً، شاهدنا حلاقاً يمارس عمله بكل هدوء. يحلق رأس الزبون الوحيد في المحل وحين سألته ما إذا كان يعرف بمصير زملائه ابتسم الحلاق عباس بكل برودة اعصاب، ودردش معنا قائلاً: لكوني قريباً من مركز الشرطة فاني اشعر بنوع من الامان، ثم أين اذهب لكي أعيش؟ ينبغي ان اعمل، لدي سلاحي الشخصي في المحل وأستطيع ان أدافع عن نفسي. تساءلت: ولكن ما الحل بالنسبة للآخرين هل نضع أمام كل محل حلاقة مركز شرطة؟ أجابانا بلا مبالاة.. لا أردي. الزبون الشاب محمد بدا قدرياً إلى درجة مفرطة. سألناه ان كان لا يخشى حضور القتلة في أية لحظة. اجابنا وهو يصفف خصلة من شعر رأسه: لا احد يستطيع ان ينجو من الموت وهو قدر لكل إنسان، ونحن غير قادرين على التلاعب بأقدارنا. هل أبقي شعري اشعث وأطلق لحيتي خوفاً من بعض القتلة؟ طبعاً لا.

أين الشرطة

وواصلنا سيرنا نحو مركز الشرطة. قلنا لأحد الحراس: نريد مقابلة مدير المركز. اخذ الهوية الصحفية وغاب أكثر من عشر دقائق ثم عاد ليقول لنا المدير غير موجود، وضابط الخفر مشغول بقضية أخرى. هذه اذن ليست قضية قلت لنفسي. وقلت للحارس: (اصدقك القول، المدير موجود لكنه لا يريد ان يقابلنا وضابط الخفر غير مشغول، وعليك ان تخبر المدير بأننا سنكتب ذلك في صحيفتنا) وحين هممنا بمغادرة باب مركز الشرطة طلب منا الحرس ان ننتظر قائلاً: احد الضباط قادم الآن وأشار إلى شاب انيق يرتدي الملابس المدنية وفعلاً تعرفنا عليه ودخلنا معاً إلى داخل المركز رحب بنا الضابط، بادرنا بالقول: غير مسموح لنا بالتصريح للإعلام وتنتظرنا عقوبات في حال فعلنا ذلك، قلنا له: نحن نتحدث عن جريمة قتل جماعي هزّت المدينة والعاصمة، والناس يتهمونكم بالتقصير. وحقيقة فخلال الساعة التي قضيناها في هذه المدينة لم نر أي دورية للشرطة بل اننا لم نر شرطياً واحداً في الشارع قال لنا وهو يؤكد على ضرورة عدم ذكر اسمه. ليست لدينا امكانات، قلة في الافراد، قلة في الآليات، قلة في السلاح.

نحن نقوم بما نستطيع ان نقوم به. ودورياتنا موجودة في الشوارع. سألته وأين وصل التحقيق؟ قال الضابط: نحن نواصل التحقيق في هذه الجرائم وعدت لأساله هل توصلتم إلى خيط يؤدي بكم إلى القاء القبض على هؤلاء المجرمين؟ أجاب مبتسماً "لا أستطيع ان اجيبك على هذا السؤال" قلت له: "أنا لا اعمل في الشرطة، ولكنني خلال ساعة عرفت من الناس عدد السيارات التي استخدمت لارتكاب الجرائم الإرهابية، وانواعها، وألوانها، بل حتى بعض الملابس التي كان القتلة يرتدونها!! توقف حديثنا عند هذا الحد، فالسيد الضابط قد وصل على ما يبدو إلى الخطوط الحمراء، وبالتالي لم يعد بامكانه ان يقول لنا أكثر مما قال، غير أنه أكد ان اليد الواحدة لا تصفق وعلى المواطنين ان يقوموا بدورهم أيضاً، فالجميع لديهم سلاح هنا!

الدين وحلاقة اللحية

في طريقنا للالتقاء برجل دين للاطلاع على رأيه بهذا الشأن قرأنا الكثير من الشعارات التي تحث على وحدة الشعب العراقي بمكوناته الرئيسة، أحد الشعارات يقول وكان مكتوباً بخط واضح وعريض (الشيعة + السنة = الوحدة الإسلامية) وهذا ما يشير إلى ان أمام مخطط الفتنة الشريرة، قوى عقلانية ترفض الفرقة وتقف في خندق وحده الشعب. كان لقاؤنا مع الشيخ (هيثم الغرباوي) مع جمع من الشباب كانوا قد انهوا للتو صلاتهم في جامع (الشروقي) قال لنا الغرباوي: قضية حلاقة اللحية ليس لها غطاء شرعي، فعدم حلقها عند أكثر الفقهاء احتياط وجوبي وليست هناك فتوى بهذا الشأن والاحتياط يقتضي عدم حلق اللحى، وقد وصل المفتي إلى حد ترجيح الحرمة، ورغم ذلك فلا يوجد عقاب للشخص الذي يحلق لحيته ولا يتوجب ذلك فالاصل هو تحريم حلق اللحية وأخذ الاجرة عليها، ولكن احداً لا يستطيع ان يفرض عقاباً على ذلك. واقول لك حقيقة، ان الذين تعرضوا للاغتيال من الملتزمين دينياً. أنا شخصياً كنت قريباً من احدى حوادث الاغتيال والغدر، وما سمعت صوت اطلاق النار حتى سارعت لأجلب سلاحي لكن الوقت قد فات وهرب المجرمون. ان الذي حصل من مثل هؤلاء لا يمكن توصيفه إلا بالارهاب والاجرام، والقوى التي تقف وراء هذه الاعمال معروفة، وهي لا تمثل السنة وليست منها، أن من قتل نفساً بلا ذنب كمن قتل الناس اجمعين، أننا بصراحة أمام مخطط كبير يستهدف وجودنا كله، شعباً ووطناً وطوائف وقوميات، وينبغي ان يعي الناس ان الانجرار وراء ردود الافعال أو الغضب العاطفي لا يخدم المسيرة الجديدة للعراق. المستقبل ليس لهؤلاء الذين يحملون سلاحهم ويقتلون الناس الأبرياء، المستقبل للشعب العراقي الذي يبني حياته الجديدة بعد ان تخلص من ظلم الدكتاتورية الصدامية.

وأضيف لك إن ازلام صدام واتباعه يقفون وراء تنفيذ هذه الاعمال الإرهابية ويتحالفون معها لتخريب العراق. قلنا للشيخ الغرباوي: الشرطة ترى ان المواطنين موقفهم سلبي ولا يتعاونون مع اجهزتهم فماذا تقول؟ فأجاب: نحن الآن نقوم بنوع من الحماية الذاتية لمناطقنا لدينا الآن دوريات مدنية مسلحة تحمي الأزقة والبيوت والمحال، وهم من أبناء المنطقة، ويرصدون أية حركة غير طبيعية أو غريبة منعاً لتكرار مثل هذه الحوادث ويحدث هذا الأمر بالتعاون مع أجهزة الشرطة.

لقد كانت مدينة الشعب آمنة، لكن نزوح الإرهابيين من المناطق التي يحاصرون فيها إلى حي أور، وما جاوره أدى إلى ان يكون لهم وجود في هذه المنطقة، وهناك أشخاص أو مجموعات يوفرون لهم السكن والدعم والسلاح!

ثم انفتح الحوار مع بقية الشباب الذين حملوا وزارة الداخلية مسؤولية حمايتهم من الإرهاب فهم يعتقدون ان هناك خللاً واضحاً في اداء أجهزة الوزارة كما ان الأمريكان لا يهتمون كثيراً بمثل هذه الحوادث.

مواطنون يتحدثون

امام محل حلاقة مغلق، نزل مصور الجريدة ليلتقط بعض الصور. النداف الذي بجانب محل الحلاقة بدت عليه علائم الحذر والخوف وراح ينظر إلينا بريبة، اقترب بحذر أكبر، كما لو انه شعر بخطر غامض، قلنا له: نحن صحافة. اطمأن، اقترب أكثر، سألناه عن سبب اغلاق محل الحلاقة، أجاب: لا أدري. ثم انسحب وهو يواصل تحديقه فينا. مواطن آخر رفض ذكر أسمه: قال انه كان في الشقة التي تقع فوق احد المحال التي اغتيل أصحابها لكنه لم يسمع سوى اطلاق الرصاص ولم يستطع ان يفعل شيئاً فقد كانت هناك مجموعة مسلحة من المجرمين يرتدون سراويل الجينز، ويتصرفون بشكل طبيعي، وكأن احداً لا يستطيع ردعهم. مواطن ثالث: ركب معنا في السيارة ليدلنا على محل حلاقة شهد اغتيال صاحبه، قال: شيء مخيف ان يحدث كل ذلك في وسط المدينة. يقال ان كل عمليات الاغتيال جرت بسرعة وتنظيم مدروس وكانوا يعرفون ماذا يفعلون بالضبط. بعد عدة أيام حدث اغتيال لحلاق آخر في حي البنوك! هذا يعني انهم يتنقلون من منطقة إلى أخرى لممارسة الفعل الإجرامي نفسه. وأضاف أكثر من مواطن بأن واحدة من السيارات المستخدمة في ارتكاب هذه الجرائم مشخصة من قبل أكثر من شاهد عيان.

ماذا ننتظر

حوادث اجرامية مثل هذه وغيرها، مرشحة لأن تحدث في مناطق أخرى، وربما بالأسلوب نفسه أو بغيره، فأساليب الإرهاب متنوعة والمطلوب على نحو سريع تفعيل دور الجماهير، عبر منظماتها السياسية والشعبية ونقاباتها ومنظمات المجتمع المدني. على الجميع ان يتحركوا لحماية مدنهم بالتعاون مع وزارة الداخلية واجهزتها، لكي لا تستفرد قوى الظلام والإرهاب المجرمة بالمواطن البسيط الذي يسعى إلى رزق يومه، ولا يخطر في باله ان مجرماً محترفاً سيقتحم محله ويرديه قتيلاً أمام مرأى الجميع!!

مواطنون: أجهزة الشرطة مقصرة في أداء مهامها

الشرطة: اليد الواحدة لا تصفق وامكاناتنا ضعيفة

رجل دين: لا غطاء شرعياً لهذه الجرائم. ونعمل على حماية المدينة

أهالي الشهداء: لن ننجر إلى مخطط الفتنة